لمحات من العناية بالعربية وعلومها
لفضيلة الدكتور السيد طلال عمر بافقيه
مدير عام المجمع الفقهي الإسلامي بالرابطة

صفحه أبيض

لمحات من العناية بالعربية وعلومها

تتميز العربية بجمال حروفها وحسن لفظها ودقة مدلولاتها وقدرتها الخارقة على العطاء والنماء ومواكبتها لمختلف مظاهر التطور الحضاري المتسلسل عبر الحياة.

قال الشافعي: لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً وأكثرها ألفاظاً ولا نعلم أنه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي ولكن لايذهب منه شيء على عامة الأمة حتى لايكون موجوداً فيها - مالا يعرف - والعلم بها عند العرب كالعلم بالسنة عند أهل الفقه لا يعلم رجل جمع السنن فإذا جمع علم عامة اهل العلم بها أتى على السنن.

وكانت اللغة العربية إلى بدء الفتح الإسلامي سليمة لم يشبها تحريف ولم يكن ليغيب عن أحد من العرب فهم شيء من غريب ألفاظها فضلاً عن مطروقها اللهم إلا ماكان خاصاً بقبيلة دون قبيلة أخرى.

وظهر اللحن في عهد عمر رضي الله عنه من الموالى والمتعربين بعد فتح الشام وفارس وقد روى أن كاتباً لأبي موسى الأشعري كتب إلى عمر رضي الله عنه «من أبو موسى الاشعري» فكتب له عمر «أن قنع كاتبك سوطاً».

وقد لاقت اللغة بسائر علومها عناية من الأولين في جميع أصولها واستنباط أحكامها في كل علومها مراجع موسوعية ونفائس علمية وادبية تموج بها الخزائن ولم يترك اللغويون صغيرة ولا كبيرة من الظواهر اللغوية العربية ووقايتها من اللحن واستعمال الكلمات في غير مواضعها إلا تناولوها بالبحث والتأليف خدمة للغة الكتاب الكريم.

وامام ماوضع من موسوعات في ناحية من علومها يكاد المرء لايصدق أن تلك الموسوعات التي ألفها نحوى أو عالم أو لغوي أو أديب، هي مجهود أفراد كالاغاني للاصبهاني والأمالي للقالي ولسان العرب لابن منظور والمخصص لابن سيده الضرير وتاج العروس للزبيدي والكتاب لسيبويه والمفصل للزمخشري وشروحه والكافية للرضى ولابن الحاجب وشروحها وغير ذلك

من أمهات المراجع اللغوية والأدبية والنحوية والبلاغية مما هو حافل بفنون الادب وطرائف اللغويات وأعذب الملح والأخبار وأدق مسائل علومها.

وفي كثير من تلك الموسوعات يذكر في مقدمتها المراجع التي اعتمد عليها المؤلف في إعداد كتابه فما عسى أن يكون مالم يطلع عليه وعدد اجزائه وصحائفه وماتحويه سطوره من نصوص وبحوث وقواعد وأحكام.

وهكذا نشط الأوائل في التأليف من اجل الحفاظ على اللغة وأصولها، ومن أجل تنمية موادها ومن أجل وقايتها من اللحن ومن أجل إبراز صور البيان الرائع وتنشيط ملكته.

فمن أجل الحفاظ على اللغة وأصولها ودلالاتها كان جمعها وفقاً على السماع من أفواه خلص العرب يذهبون إليهم في البوادي وخلفوا مراجع ومصنفات ومعاجم تستعصي عن الحصر، ومكنت من تجريد الفاظ ميزها العرف الخاص في علم من العلوم فجمعوا على توالى القرون من تلك المصطلحات معاجم للطب ومعاجم للبنات ومعاجم للحيوان وفتح ذلك الباب إلى وضع معاجم للبلدان ومعاجم للرجال ومعاجم للموسيقى وغير ذلك مما خلفوه من الكثير النافع من المؤلفات.

ولما صح لهم ما ارادوا من الجمع عكفوا عليه ينظرون فيه من وجهة اخرى، وهي الوقوف امام مفرداتها، ومركباتها فتوصلوا إلى استنباط قواعد مختلفة لغوية ونحوية وصرفية وبلاغية واشتقاق ونحت وقياس إلى آخر الوجوه التي تستقيم بها الألسن وتزكو الأساليب وتتهيأ الأذهان لفهم دلالات الألفاظ واستعمال كل لفظ في موضعه.

ومن أجل تنمية موارد اللغة وتمكين الانتفاع بها في كل ناحية وإقدارها على مسايرة العصور المتجددة ومقتضيات الحضارة المتطورة واستمرار عطائها على هدى أصولها الأولى توصلوا إلى استنباط قواعد مختلفة من فنون الاشتقاق والوضع والنحت والقياس مما يسميه النحاة القياسي والسماعي أو المطرد والشاذ فأمد ذلك العربي وكل متكلم بها بكل مايحتاجه

من الفاظ وتراكيب تضمن له التعبير عن كل مايجد في حياته بشتى أنواعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية مع ارتكازها على أصولها الأولى التي هي الدستور الأقوم الذي يجب أن نحرص عليه في كل جديد نقدم عليه من أمرها أهو مفيد أم ضار باللغة حتى لاينالها أذى ولا يتسرب إليها ضعف وفي الوقت نفسه لاتقصر عن مواكبة مختلف مظاهر التطور الحضاري المتسلسل عبر الحياة.

ومن أيسر الطرق- لسد حاجاتنا من الألفاظ التي نستعيض بها عن الأعجمي والدخيل- الاشتقاق فاسم الفاعل واسم المفعول واسم الآلة واسماء الزمان والمكان وبقية المشتقات في مختلفة أوزانها تشكل طاقة لغوية يجد فيها متكلم العربية ضالته من الألفاظ والتراكيب فكثيراً من المخترعات بالامكان درجها تحت هذه المشتقات مثلاً كلمة صاروخ اسم لسلاح حربي على زنة فاعول وهو أحد أوزان اسم الآلة كساطور وشاكوش فيأتى على وزن ذلك صاروخ مشتقاً من الصراخ وكلمة مدفع اسم لسلاح حربي على وزن مفعل وهو أحد أوزان اسم الآلة ايضاً كمنجل ومبضع فيأتى على وزن ذلك كلمة مدفع مشتقاً من الدفع فيفيد معنى الانطلاق السريع بقوة وهذا شأن القذيفة التي تقذف بالمدفع وغاية الاشتقاق بيان طرق صوغ الكلمات بعضها من بعض لمناسبة.

ومن أنواع الاشتقاق مايعرف بالنحت وهو أخذ كلمة من كلمتين أو من جملة لسد ماتقذفنا به الاصطلاحات وأسماء المخترعات من الاكتشافات نحو بركيمائي وبرمائي وذلك ضرب من الاختزال اللفظي وبواسطته نستحصل على كلمات حديثة لمعاني حديثة، وغاية النحت هو الاختصار فنضع كلمة من كلمتين أو كلمات تأخذ من هذه ومن تلك بعض حروفها وندع من حروفها بعضاً آخر، ونصوغ مما أخذناه كلمة نستغنى بها عن تينك الكلمتين أو الكلمات.

ومن أمثلة النحث عبشمي منحوت من عبد شمس وحوقل منحوت من لا

حول ولا قوة الا بالله وبسمل من بسم الله الرحمن الرحيم، وصلعم من صلى الله عليه وسلم، وطبلق من اطال الله بقاءك، وحمدل من الحمد لله رب العالمين. وهكذا.

ولأهمية النحت بادر علماء العربية منذ القدم إلى العناية به وتقعيد قواعده وجاء ذلك تارة في ثنايا تأليفهم اللغوية وأخرى مستقلاً بالتأليف.

ومما يفيد في تنمية موارد اللغة في ألفاظها القياسي وهو حمل كلمة على نظيرها في حكم وماحمل على الكثير يسمى مقيساً أو قياساً، وماسمع من القليل يوصف بالسماعي عن الكوفيين، أما البصريون فقد يقيسون عليه، تنمية لموارد اللغة.

ومما عنوا به معرفة مدلولات الألفاظ ما مدولة جزئي كالأعلام والضمائر وأسماء الإشارة والموصولات والحروف وما مدلوله كلي كالمصدر والمشتق والفعل وما وضع منها بإزاء معنى يدل عليه بنفسه كوضع إنسان للحيوان الناطق وما وضع منها بإزاء معنى يدل عليه بواسطة العلاقة والقرينة. كما في وضع المجازات والكنايات، وما لوحظ فيه وضعه بقانون كلي كوضع سائر المشتقات والمركبات.

وتفصيل ذلك وتقسيماته مدون بالمصنفات فيما يسمى علم الوضع من علوم اللغة ومما نشط فيه الأوائل لوقاية اللغة من اللحن علم النحو بدأه أبو الأسود الدؤلي ثم كتب فيه الناس من بعده مثل الخليل وسيبويه ثم كثر التأليف فيه.

وكذلك اتجه التأليف فيما بعد القرن الثالث إلى لحن الخواص كما فعل الحريري في درة الغواص الذي نبه إلى كلمات استعملت خطأ في غير موضعها.

ولقد كان من مزايا النحو إرشادنا إلى ضبط أواخر الكلمات مع ماقد يسبقه من ضبط حروف أخرى أو وضع كلمات في جملتين وضعاً سليماً، أو مايتصل بهذا مما يوضحه النحو ويفصله.

فعلم النحو يعتبر ميزان اللغة وضابطها الذي يقوم لسان الناطق بالعربية ويقيه غائلة اللحن ويرشد إلى فهم المعنى.

وعلم الصرف يعتبر ميزان بنية الكلمة فينظر في سلامة تركيب حروفها عن الخطأ ويبحث فيما يعتريها من ظواهر الإعلال والإبدال والقلب كما يبحث في تحويل الأصل الواحد إلى أمثلة مختلفة.

ومما تجب ملاحظته أن قواعد النحو والصرف يجب أن تساير ماورد في القرآن وتنضوى تحته وتخضع له ولا نجيز للقواعد البصرية أو الكوفية أو غيرهما أن تمد اليه سلطانها بالتأويل والتمحل بل يجب أن تساريه وتنضوى تحته وتخضع له.

قال ابن خالويه في شرح الفصيح قد أجمع الناس على أن اللغة إذا وردت في القرآن فهي أفصح مما في غير القرآن.

علم البلاغة هو العلم الجمالي والتذوق الفني لعيون الأدب وروائعه وتبين نواحي الإبداع فيه وبالجهود المتوالية تكون الصرح العام لعلوم البلاغة وأصبحت ذات ضوابط ورسوم ومصطلحات وحددت عناصر الجمال التي يمتاز بها التعبير الفني ثم صبت في قوالب العلم التي تلتقى فيها الحدود والتعريفات بالمصطلحات والتقسيمات وانقسم هذا العلم إلى ثلاثة علوم وهي المعاني والبيان والبديع وتحددت معالم كل علم منها وتميزت مباحثه وغلب الطابع الأدبي في القرون الأولى على أبحاثها وانتهى الأمر أخيراً إلى التعقيد العلمي الذي تأثر بمبادئ الفلسفة والمنطق ومباحث الاصول وعلم الكلام حتى أصبح غير خالص للنظرات الجمالية وتبيين نواحي الإبداع وبذلك حرم ذوق الأديب وخبرة الناقد.

فبلاغة الأمس تذب عن القرآن وتنبه إلى وجوه إعجازه وتوجه الآداب إلى حيث ينبغي أن تكون.

وبلاغة اليوم في أحسن أحوالها حدود تذكر وأقسام تحصر وشواهد تستظهر لا تنشط ملكة بيان أو تعين على نقد أو تذب عن معجزة القرآن باثبات إعجازه وتحديه للمكابرات عن طريق أبراز صور البيان الرائع فيه الذي تحدى.

صفحه أبيض

أعلام الفصاحة:

ومن أقدم من كتب في البلاغة عبدالله بن المعتز سنة ٢٩٩ ضمن كتابه البديع، الاستعارة والتجنيس والمطابقة ثم قال والبديع أكثر من هذا.

ثم جاء من استخرج من عيون الأدب فنوناً بلاغية كثيرة حتى جاء عبدالقاهر الجرجاني الذي عدوه شيخ البلاغة. لأنه هو الذي وضع أساسها بكتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، وقد خصص كتابه دلائل الإعجاز تقريباً لمباحث نظم الكلام من ذكر وحذف وتقديم وتأخير.

وخصص كتابه أسرار البلاغة لمباحث الدلالة من الحقيقة والمجاز والتشبيه والاستعارة ونحوها ثم ذكر المحسنات التي اختص بها أخيراً علم البديع والتي ترجع إلى التحسين لاغير.

وكان أسلوب عبدالقاهر في كتابيه أسلوبا بليغا يساعد على تربية ملكة البلاغة وقد طفر بهذا العلم طفرة لم يسبق إليها ولم يأت بعد من سار على هديها.

ثم جاء أبو يعقوب السكاكي بعده فميز فنون البلاغة بعضها عن بعض وزاد على عبدالقاهر زيادات وكان في أسلوبه كثير من التعقيد لايعنى إلا بتقرير القواعد مما يفيد الناظر فيه علماً ولا يفيده أسلوباً بليغاً وقد جرى على أسلوبه من جاء بعده فكان عمدتهم في هذا الترتيب.

وقد جاء بعد السكاكي الخطيب القزوينى فلخص مبحثه في كتابه تلخيص المفتاح ثم ألحق به الإيضاح لتلخيص المفتاح.

وفي كتابه التلخيص لم يكن يعنى إلا بجمع القواعد وأن كان أسلوبه أوضح من أسلوب السكاكي وقد تهافت عليه المتأخرون، واعتنى العلماء به فكتبوا عليه الشروح والحواشى والتقارير، وكان من السابقين إلى شرحه سعد الدين التفتازاني في شرحيه المطول والمختصر.

أما كتاب الإيضاح للخطيب فقد جرى فيه على ترتيب كتابه التخليص، حيث جاء وسطاً بمثابة شرح للتلخيص ولكنه لم يرزق من الحظوة مارزق التخليص.

وقد شرح الإيضاح من المعاصرين عبدالمتعال الصعيدي شرحا سماه بغية الإيضاح شرح فيه شواهده وأضاف مايلزم إضافته من شروح التخليص وحواشيه ونقد مايجب نقده كل ذلك من غير تطويل ولا ايجاز مخل.

هذا وإن الشروع في صيانة اللغة ووضع الأصول والضوابط وتنويع فنونها قد بدأ في صدر الإسلام ثم نشط واتسع وكثر المشتغلون بها والمؤلفون فيها على اختلاف فنونها أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث.

ثم تبعهم بالشرح والتعليق والاطالة والاختصار من جاء بعدهم خلال القرون المتعاقبة والى الآن.

وأخيرا لابد من اشارات موجزة إلى الفنون التي قسموا اليها علوم اللغة العربية وهي:

علم متن اللغة – والصرف والوضع والاشتقاق – والنحو – والمعاني – والبيان – والبديع – والعروض – والقوافي – وقوانين القراءة – وقوانين الخط والإملاء – والأدب مما يشمل قرض الشعر وإنشاء النثر وماعنوا به أخيراً من تدوين تاريخ ادب اللغة وادوارها في عصورها المختلفة، وفن المحاضرات الذي يعنون به مايحصل به ملكة ايراد المناسب للمقام ومايطيب به ذكر المجلس من مواعظ ومزاح ونكات مضحكة وفنون.

ووجه الحصر في هذه الفنون انه ان كان البحث عن معرفة أوضاع المفردات من حيث جواهرها فهو علم متن اللغة والوضع أو من حيث صورها وأبنيتها وتحويل الأصل الواحد الى أمثلة مختلفة فهو علم الصرف.

أو من حيث أخذ الألفاظ المتناسبة بعضها من بعض فهو علم الاشتقاق وان كان البحث عن المركبات من حيث ضبط أواخر الكلمات ووضع الكلمات في مواضعها فهو علم النحو.

أو من حيث الإتيان بالكلمات والتراكيب مناسبة.. فهو علم المعاني.

أو من حيث إيراد الواحد بطرق مختلفة في وضح الدلالة عليه أو خفائها فهو علم البيان.

أو من حيث تحسين الكلام وتزويقه فهو علم البديع.

أو من حيث كون المركبات موزونة فعلم العروض، أو من حيث أواخرها فعلم القوافي.

وإن كان البحث يتعلق بنقوش الكتابة فالخط والاملاء أو من حيث المنظوم فقرض الشعر أو من حيث أنشاء النثر فعلم الإنشاء ومنهما يتكون علم الادب وهو ثمرة العلوم المتمثلة في الشعر والنثر ، وان كان البحث مما يختص بإيراد اللطائف في المجلس فهو من المحاضرة.

وقد تنأول الشعراء والكتاب والناقدون علم الأدب بما لا مزيد عليه واهتموا بتاريخه وموضوعاته ومميزاته في كل عصر، والمؤلفات الخاصة والعامة والابحاث في ذلك اكثر من ان تحصى، ولكنا نشير هنا بايجاز إلى فن من الادب هو المقامات الذي أول من أوجده في الادب هو بديع الزمان الهمذاني من رجال القرن الرابع من أكبر أدباء عصره ومناظرته مع أبي بكر الخوارزمي أديب نيسابور وماقيل من تغلبه عليه اشهر من ان تذكر، وترجع أهمية أدب المقامات الى انه أوجد في الادب شكلا جديدا بين القصة والمقالة.

والمقامة في الاصل هو المكان الذي يجتمع فيه الناس ثم استعملت مجازا في الناس الذين يجلسون في المجلس لتلقي الحديث الذي يدور فيه ثم انتقلت من أفقها اللغوي والمجازي لتشمل الوانا من القصص والملح والنوادر والنصح والإرشاد والثقافة العامة والأساطير والألغاز والأ حاجي والتحايل في التسول، وتبلورت إلى مدلولها الفني عند بديع الزمان قصة ادبية قصيرة وضعت في اطار الصنعة اللفظية والبلاغية بطلها متسول بارع واسع الحيلة ولها رأو، وتقوم على نكتة تستهوى الحاضرين في مسألة ادبية أو دينية أو مغامرة مضحكة تحمل في طياتها لونا من الوان النقد أو السخرية والكدية والاحتيال لجمع المال.

فهي اسلوب قصصي حواري يؤدي بالفصيح من القول والامدادات بالغريب من الالفاظ وينبئ عن عبقرية المنشئ والمامه بالغريب واجادته

للمحسنات البديعية، وربما كان بديع الزمان متأثرا في مقاماته بالواقع الذي عاش فيه فعند انقسام الدولة العباسية الى دويلات عاشت قطاعات كبيرة من الناس في بؤس أدى إلى ظهور طبقة المكدين والمتسولين، واتسم بعضهم بالذكاء وسعة الحيلة في جلب الرزق من التسول. وظهر شعراء في الكدية مثل ابن الحجاج وابن سكره وأبى دلف وغيرهم.

كما انتشر في أقاليم كثيرة طوائف كان لهم في كل بلد اسم خاص يعرفون به كالغجر أو النور أو الساسانيون.

وكانت أماكن سكناهم الخيام أو العربات المتحركة وكانت نساؤهم جميلات متبرجات أصحاب طرب وغناء وأدب واحتيال في جمع المال، وكذلك بديع الزمان نفسه رغم نبوغه في الأدب فإنه قد ضاقت به الحياة وعاش حياة معظمها بؤس.

فتكون من ذلك الواقع الشرارات التي أوحت اليه بفكرة المقامة وإنشائه للكدية في بلاغة لفظ استهواءً للحاضرين فجاءت مقاماته من الواقع الذي عاش فيه وصاغها على نمط تلك النماذج التي لاقاها، وربما كان لبعض الكتاب الذين سبقوه أثر في فكرته كالجاحظ وابن قتيبة وغيرهم ممن ألف في البخل والبخلاء أو في مقامات الزهاد أو من له نظرات فلسفية كأخوان الصفا.

وكانت عناصر مقاماته في الأغلب:

١- تقديم صورة شاملة لواقع بيئته فكانت الكدية صفة ملازمة لبطل المقامات وتفننه في ذلك بسعة تراجع.

٢- البراعة والبلاغة ومذهب الصنعة في كتابته.

٣- النقد الادبي والفلسفي لمجتمعه.

٤- الالغاز والوعظ والمسائل من علوم شتى.

٥- فكرة الغربة وتوالى الاسفار.

وتتابع التأليف في المقامات بعد بديع الزمان في المشرق والمغرب واستمر ذلك إلى عهد قريب ومنها ماهو ذو نزعة قصصية ومنها ماهو ذو

نزعة مقالية ومنها ماهو بعيد عن الكدية ويتضمن محاورات ومفاضلات ومناظرات ورحلات وأوصاف لبعض المعالم.

وممن ألف في المقامات بعد بديع الزمان: الغزالي والزمخشري وابن الجوزي والشاب الظريف والكازروني والصفدي وابن الوردي والقلقشندي والسيوطى والخفاجي والسرقطي والمويلجي في حديث عيسى بن هشام وقد ذكرت كتب الأدب أسماء كثير من المقاميين مما يدل على ان الكتاب قد وجدوا في هذا الفن مجالاً خصيباً ينفثون فيه مايجيش في صدورهم ويكشفون مافي المجتمع من عيوب، ويوصلون إلى الاذهان والقلوب مايريدون إيصاله إليها في أسلوب شيق بعيد عن جفاف الوعظ المباشر.

وكان اشهر المقاميين بعد بديع الزمان هو الحريري من رجال القرن الخامس وقد تفوق في مقاماته على الهمذاني في الصياغة الأسلوبية وكثر شراحها ودارسوها واخملت المقامات الهمذانية واصبحت هي النموذج الذي يحتذى من بعده.

ولعل في هذه اللمحات في فنون اللغة العربية والعناية بها مايكفي لمن يريد التقاط الفوائد دون كد أو عناء والله الموفق.